الجمـــــهورية الجـــــــزائرية الديمـــــــــقراطية الشعـــــــبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد خيضر – بسكرة –

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

محاضرات في النص الأدبي الحديث

الإرهاصات التاريخية والفكرية للأدب الحديث (تقويض مغالطات حملة نابليون)

السنة الأولى ماستر تخصص أدب حديث ومعاصر

إعداد: سامية آجقو

تمهيد

ظلت البلاد العربية ترزح تحت وطأة حكم الأتراك ثلاثة قرون وهي في ظلام دامس وجهل مطبق، وهذا ما تؤكده كتب التاريخ الإنساني الذي يشهد بروح الاستبداد والبطش التي خنقت البلاد العربية بيد الحكم التركي الذي غرز أنياب الفقر والمرض والجهل والمهانة في جسد الشعوب العربية، في حين لم يكن للولاة الأتراك همّ إلى انتهاب الأموال واقتطاع الأراضي.

ومن المقطوع به أن تردي الأوضاع والأحوال الثقافية والأدبية هو مرآة عاكسة للفوضى الاجتماعية والسياسية التي انتهجها حكم المماليك، وهو ما أثّر بشكل واضح على الأدب شعره ونثره.

1) الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية قبيل حملة نابليون:

حرم الأتراك مصر أغلى كنوزها فنقلوا أكثر الكتب التي كانت بخزائن المدارس إلى بلادهم، ثم نقلوا كثيرا من العلماء، والأدباء، والأمراء والمهندسين، والوراقين، وأرباب الحرف، وكان من نتائج هذا الاحتلال كذلك أن قلّت أموال الأوقاف التي كانت محبوسة على العلماء وطلبة العلم، فتفرق الطلاب وانقضت سوق العلم .ومن البديهي أن اللغة العربية لم تجد في هذا العصر المظلم من يشدّ أزرها، ويثيب الشعراء والكتاب المحتفين بها"؛ لأن اللغة التركية طغت وصارت اللغة الرسمية في الدواوين، وفشت على ألسنة الناس، ولأن الحكام لايفقهون العربية ولا يقدرونها قدرها.

ولم يعد في استطاعة كثير من الكتاب أن يسلموا من اللحن الفاحش أو يأتوا بالمفهوم المقبول، بل عزّ عليهم اللفظ الجزل والأسلوب القوي، فلجؤوا إلى الزخرف والمحسنات يخفون بها عوار كلامهم، وقد أكثروا من هذه الحلى اللفظية حتى استغلق الكلام وأتوا بالغثِّ السمج الذي إن حسن فيه شيء كان سرقة و اغتصابا من آثار من سبقوهم من الكتاب.

ولم يكن الشعر إذا صح أن نسميه شعرا- أرقي حالا من النثر وإنما كان صناعة لفظية غثّة كقول الشاعر راثيا:

سألت الشعر هل لك من صديق وقد سكن الدلنجاويُّ لحده

فصاح وخرّ مغشيا عليه وأصبح ساكنا في القبر عنده

فقلت لمن أراد الشعر أقصر فقد أرختُ مات الشعر بعده

ومن ذلك قول الشهاب الحفاجي

فد يتك يامن بالشجاعة يرتدي وليس لغير السُّمر في الحرب يغرسُ

فإن عشق الناس المها وعيونها من الدَّ ل في روض المحاسن تَنعِسُ

ومن هذه النماذج المتقدمة للأدب قبيل النهضة، ندرك كيف كان النهوض بطيئا، يحتاج إلى عناء طويل، وصبر كثير، وزمن مديد ليبلغ أشدّه ويُؤتي أُكله.[1]

[1] عمر الدسوقي: في الأدب الحديث ج1، دار الفطر، القاهرة، مصر، ط8، 1973، ص17-18-20.

تلك كانت حال البلاد، ولم يكن من البيئة مايساعد على النهوض، فكان لابد من نور غريب ينير الأذهان ويرفعها إلى مستوى المجاري الفكرية والأدبية العالمية، وكما أن الشرق أنار أوربا في أيامها المظلمة كذلك استعان الشرق بأوربا في عهد انحطاطه ليقيم صرح نهضته.

2)حملة نابليون وآثارها:

في أواخر القرن الثامن عشر رأت فرنسا أن تحتل مصر رغبة منها في التوسع ثم في سدِّ طريق الهند في وجه انكلترا، فوكلت الأمر إلى نابليون بونابرت، فأعدّ الحملة وفي النصف الثاني من شهر أيار سنة 1798 م سار أسطوله إلى مالطة فاحتلها، ثم قصد الاسكندرية وتغلب على جيش المماليك، وكان المماليك إذ ذلك حكام مصر الفعليين لاتهتم الدولة العثمانية إلا بأن يصلها خراج مصر السنوي، وقد عمّت الفوضى في البلاد، وتناحر المماليك فيما بينهم، واشتد أمرهم على الناس كما اشتد أمر الجند الذين عاثوا في البلاد فسادا باعتدائهم على الأموال والأعراض والأرواح. فكانت من ثمّ حملة نابليون بونابرت على وادي النيل أشبه بصاعقة انقضت على تلك الفوضى المملوكية، وإن كانت غاية الفاتح غاية استعمارية سياسية، فحدّت من غلواء المماليك، وبددت شملهم وأيقضت مصر من سباتها العميق لاسيما وأن نابليون قد أراد أن يكون غزوه لمصر لا بسلاح الحرب فقط بل بسلاح المعرفة والعلم أيضا، ليكون له مجدان مجد السيف ومجد العرفان، فيكتسب عطف علماء أوربا ومفكريها، ولهذا ضمّ إلى حملته طغمة من العلماء وأهل العقل والصناعة بلغ عددهم 146عقلا مفكرا

وما إن استتب الأمر للفرنسيين حتى أنشأوا في القاهرة مدرستين لتعليم أبناء الفرنسيين المولودين بمصر، وأنشأوا مجمعا علميا على غرار المجمع العلمي الفرنسي.

وأصدر الفرنسيون صحيفتين باللغة الفرنسية هما Le courrier d’ Egypte أي " يريد مصر" وهي تعد لسان حال الحملة، و La Décade Egyptienne أي " العشارة المصرية: وهي لسان حال المجمع العلمي، وأنشأوا أيضا مسرحا للتمثيل فضلا عن المصانع والمعامل لصنع الأقمشة والورق، وفضلا عن المراصد الفلكية ودور النقش والرسم.

فكان من الحملة الفرنسية أنها هزّت مصر هزّة عنيفة بنقلها قوة العرب ومدنيته إليها، فهبّ المصريون من غفلتهم وفتحوا أعينهم على مالم يكن لهم عهد بمثله.[1]

كتب أحمد هيكل في كتابه(تطور الأدب الحديث في مصر) عن فترة النهضة في مصر وقد جعلها في مرحلتين اثنتين:

- ❖ فترة اليقظة: وكانت من بداية الحملة الفرنسية عام 1798 م حتى سنة 1863 م.
- ❖ فترة الوعي: من سنة 1863م حتى سنة 1882م. عندما احتلت بريطانيا مصر.[2]

يؤكد استقراء التاريخ على أن العقلية الأوربية انتهازية استعمارية تسلطية تدخلية في شؤون الأمم بقصد استغلال الآخرين رغبة في تحسين الأوضاع المعيشية، ولأن أوربا – بطبيعتها – فقيرة في الموارد الطبيعية فهي تعيش من قبل الميلاد على نهب خيرات العالم من خلال تكريس الفكر الاستعماري والتحركات التدخلية في مصائر البلاد والعباد، حتى اليوم، وهذه الفكرة هي مفتاح عقلية محمد علي ابن العقلية الأوربية الاستعمارية.

3) اصلاحات محمد علي:

ترك الفرنسيون وراءهم تراثا حضاريا مثل المطبعة وإصدار أول جريدة في المنطقة واسمها جورنال، وأول مسرح في المنطقة ومطبعة نابليون التي صار اسمها المطبعة الأميرية (نسبة إلى الأمير محمد علي، مطبعة بولاق)، فاستغل محمد علي هذه الأشياء استغلالا حسنا، وأراد أن يقيم قوة عسكرية استعمارية ضاربة يحتل بها المنطقة، فاستقدم العلماء الأوربيين وبنى القناطر واحتل منابع النيل، وأنشأ الجيش المصري واحتاج إلى تدريس العلوم فأنشأ المدارس العلمية مثل مدرسة الطب والمهندس ، ثم قاده تفكيره إلى جلب علوم أوربا ألى مملكته فأرسل المبعوثين يتخصصون في مجالات العلوم مثل الفنون العسكرية والطب والزراعة والصناعة، ورمت الأقدار في الطريق - من بعد – برفاعة الطهطاوي الذي أنشأ مدرسة الألسن فدخلت الثقافة والفنون ضمن مخطط محمد علي وأسرته.

[1] ينظر: حنا القاحوري: تاريخ الأدب العربي، المطبعة البولسية، 1953، ص901، 903، 904.
[2] مسعد بن عبد العطوي: الأدب العربي الحديث، مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، ط1، 2009، ص17، ص18.

احتل محمد علي ماأراده، وما خطط له فإتجه يحقق أحلامه التوسعية الاستعمارية باحتلال السودان، ومنابع النيل في افريقيا، وبمحاذاة البحر المتوسط في آسيا، واحتل الحجاز ووصل إلى عكا. وتدخلت أوربا لايقاف هذا المشروع وتمت هزيمة محمد علي وعاد أدراجه وتم عزله عن الحكم وفرض العديد من القيود على الدولة المصرية.

في عهد محمد علي صدرت بضعة صحف، وتم طبع بعض أمهات الكتب وتولّى رفاعة الطهطاوي تحرير " الوقائع المصرية" أول جريدة عربية في المنطقة، وبدأ الاهتمام بالتعليم وإنشاء المدارس والتشجيع على ذلك فبدأت البدايات – غير المرئية – للثقافة الحديثة في الظهور.[1]

[1] ينظر: أيمن ميدان، أبو اليزيد الشرقاوي، أحمد صلاح محمد: الأدب العربي الحديث، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر، ص10- 11.